

مصاعب في الطريق

منح الإنسان حياته ليؤدي دوراً محددًا مرسومًا له في هذا الكون، وكانت حياته الدنيا هذه مرحلة أولى من مراحل حياته، ومضت سنة الله في الحياة، أن يتعرض الإنسان أثناء عبوره (لقناتها) القصيرة، إلى ابتلاء وهزات ومكاره، وأن يجابه أثناء اجتيازه لهذا الجسر المؤقت، مصاعب وعثرات في بعض خطواته، وأن يمحص خلال هذه الرحلة، ليميز الله الخبيث من الطيب. فربما تعرض لحريق التهم أملاكه، أو حادث مروري، أو مازق مالي، أو غدر فجائي، أو فشل اجتماعي، أو دب به المرض فأقعده أياماً وليالي طويلة طريح الفراش، أو أصيب بأزمة أضاعت ثرواته، أو خيبة في الأهداف التي وضعها نصب عينيه، أو شهد كارثة طبيعية ونتاجها المروعة، أو فقد عزيزاً غالياً؛ أو ولدًا صالحاً، أو . . .

ترى كيف يواجه الإنسان مثل هذه المواقف؟ وما القوى والدوافع والتصورات التي تحدد شكل المواجهة؟ وما الثمار التي يجنيها من وراء اتخاذ هذه المواقف؟

يروى لنا الكاتب (دايل كارنجي) قصة أب « كان سعيداً في حياته الزوجية، وله ابنة كانت كالملاك يرفرف في بيته، فاختطفها الموت وقلب البيت رأساً على عقب، فجعله تعيساً حزيناً، وعزى الأب نفسه بطفلة أخرى بعد عشرة أشهر من وفاة طفلته الأولى، ولكن الموت اختطف طفلته هذه أيضاً، تاركاً وراءها أباً وأمّاً يعيشان بقلق مريع ما عرفاه قط، فسيطر عليهما القلق وأبى مفارقتهما، لقد جثم على صدر هذا البيت بكل أعبائه وثقله، والأرق على أعينهما ليل نهار، ولم يذوقا طعم النوم مطلقاً، فأشار عليهما الأطباء بتغيير الهواء والانتقال إلى بيت آخر، ولكن أتى لهما الابتعاد عن بيت شهدا فيه مرارة بعد سعادة، ومن الأطباء من أشار عليهما لقتل الأرق والقلق بأخذ دواء منوم، وذلك كتهدة للأعصاب.

ولكن الطبيعة وقوى الإنسان (!) لم يستطيعا طرد هذا القلق، فكيف

القضاء عليه بقاء منوم؟ لذا عاشا مدة حياتهما ولم يعرفا طعم السعادة، ولا معنى الحياة الحرة الكريمة»^(١).

إذا التقتنا مباشرة في الجهة المقابلة صورة أخرى، ماذا نجد؟ لقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: « اشتكى ابن لأبي طلحة، وأبو طلحة خارج. فلما رأت امرأته انه قد مات هيات شيئاً ونحته في جانب البيت . فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح. وظن أبو طلحة أنها صادقة. قال فبات. فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبي ﷺ، ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ: ﴿لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما﴾ قال سفيان: فقال رجل من الانصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن.^(٢)

لقد اختلفت النظرتان، وتباين التصوران عن الله - سبحانه -، وعن الوجود والحياة والموت، فالإنسان الذي تتداعى نفسه، وتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويفاجأ بالمصائب إذا لاقته، ويتبرم بالآلام إذا مسته، فلا يرضى بما حدث، ويشد الخناق على نفسه، ويحاصر ذاته بعمد من السخط والجزع والرفض والعجز، ويبنى حوله أسواراً، لبناتها: (لو) و(لولا) و(ليت) و(....)، هذا الإنسان لم يدرك سنن الله في الحياة، ولم يألف قلبه نور الإيمان، وأمن العقيدة.

إن الموت حق، وهو نهاية كل حي، و﴿كل نفس ذائقة الموت﴾^(٣)، ونقله الحياة إلى الموت تأخذ الناس جميعاً، ولا تستثني منهم أحداً، وتداول الأيام بينهم، ويمضي قطار الحياة السريع، وتطوى صفحاتها الحلوة الخضرة العاجلة، وتدور عقارب ساعة الرحيل؛ ولكن النفوس المؤمنة الصادقة المطمئنة تقضي نحبها، وترجع إلى ربها راضية مرضية، وقد ربحت تجارتها،

(١) دایل کارنیجی . دع القلق وابدأ الحياة . صفحة : ٦٥ .

(٢) صحيح البخاري .

(٣) سورة ال عمران . الآية : ١٨٥ .

وظفرت بالبركة والراحة والاطمئنان والخلود في الجنان .
والشهداء فرحون بقدمهم إلى الله - سبحانه - ، أحياء عند ربهم
يرزقون، وقد قضوا هذه الحياة الدنيا، وذهب ما فيها من نصب وتعب، وبقي
لهم السيرة الحسنة، والجزاء الأوفى والفوز العظيم، والنعيم المقيم الخالد .
إن الكفار يموتون، والخطايا والآثام تحيط بهم، والهلع والذعر
يحاصرهم، واصابع الندم تخرج بها حلوقهم، وأغلال شحهم وشهواتهم
تطوق أعناقهم، وإسار جحودهم وصدّهم تكبلهم، وقد أخطؤوا في
حساباتهم، واشتروا مقابل عمرهم المحدود، وخلال فرصتهم الدنيوية
الوحيدة، وبالهدى الذي أنزل إليهم، وبالإيمان الذي عرض عليهم،
وبالآخرة التي إليها معادهم وفيها قرارهم، سفالة الكفر والضلالة، ودراهم
معدودة، ومتاعاً مؤقتاً، ولهواً عابثاً، ولغواً فارغاً، ومعيشة ضنكاً، وبأؤوا
بالخسران في الآخرة، وهي خير وأبقى . وذلك لسطحية تفكيرهم، وسوء
تقديرهم، وقصر نظرهم، وعمى بصائرهم، وضآلة عقولهم، وكبر نفوسهم .
وإن الطواغيت وزبانيتهن، والمجرمين وأكابرهم، والجبابرة وأزلامهم،
يهلكون عاجلاً أم آجلاً، والخوف من المصير الأسود يلاحقهم، وقذف
اللعنات يتبعهم، ودعوات المظلومين تنزل عليهم، وأعمالهم الخاسرة تحيق
بهم، وقرائح المنافقين تثني عليهم، وأجهزة المتنفعين تزمز وتطبل لهم،
وأقلام المأجورين تشيد بهم، وجماهير الرعاع تصفق لهم، وغوغاء المسوقين
تهتف لهم، وأساطين الباطل تشد عضدهم، وبطانة الشر تزينه لهم، وظهارة
الحق تدعوهم إليه، ونخبة العقلاء تسخر منهم، وأسافين نعوشهم تُدق
لحملهم، وزخارف قبورهم تُنقش لدفنهم، وقد قضوا هذه الحياة القصيرة
أيضاً، وذهب ما فيها من لذة مؤقتة، ونشوة خادعة، وخزائن مكدسة، وبقي
لهم «مزيلة التاريخ»، وعبيد «الأصنام»، وعذاب الخزي، ونار السموم .
فالكل يموت، ولكن فرق بين موت وموت .

إن امتحان الحياة الذي يميز أولي العزم من الخوّارين الضعفاء، ليس
كلمات تكتب، أو أفكاراً تراود، أو أقوالاً تطلق، وإنما هو آلام ومصاعب،
وجراح وأثقال وابتلاء، فمن لم ينجح، ولم يستطع الصمود، ليس أهلاً لأن

يحمل أمانة، أو ينهض بمسؤولية، فدرّب الحياة ليس كله مفروشاً بالمروج الخضراء، وليس كله مظلاً بالغمام، وليس كله مزيناً بالورود والرياحين والأزاهير والأقحوان.

لذا كان ﴿الصبر ضياء﴾^(١)، وكان التجمل والتماسك مقياس الإيمان والبطولة والقوة والفهم.

والصبر لغة: الحبس والكف، أي حبس النفس عن السخط والجزع والهلع، الذي يورث القلق الدائم المضني، ويأتي على عيش الإنسان من القواعد، ولا يعود عليه بأية منفعة.

وقال رسول الله ﷺ: ﴿عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له﴾^(٢).

وقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «خير عيش أدركناه بالصبر».

وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «الصبر مطية لا تكبو».

ولكن يجب أن لا نغفل عن طاقة النفس البشرية وطبيعتها، فإن الصدمة الأولى، والخطر المباشر، والحدث المفاجيء، لا بد أن يترك أثراً، أو يحدث هزة، ولا بد للمصائب أن تحدث حرقه في الفؤاد، أو التهاباً في الأكباد، أو حرّاً في الأجساد، لذا نرى كيف راعى الإسلام هذه الطبيعة البشرية، ففسح مجالاً للقلب أن يحزن، وللعين أن تدمع، ورفض التصرفات المفتعلة كالنياحة، وضرب الخدود، وشق الجيوب، والهياج والسخط والآنزواء، والاندفاع نحو التهلكة، والانتحار.

وهذا محمد رسول الله ﷺ تدمع عيناه، وهو يقبل أولاد جعفر الصغار عندما جاءه نبأ استشهاد جعفر، وهو نفسه يناجي ابنه إبراهيم، وهو مسجى أمامه: ﴿يا إبراهيم، إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا

(١) صحيح مسلم .

(٢) رواه الإمام أحمد والإمام مسلم في صحيحه .

إبراهيم لمحزونون ﴿١﴾.

ويحسب النفس أن تمضي في طريقها بعد الهزة الأولى راضية بما حدث، مستسلمة لأمر الله، مطمئنة إلى أن ما يصيب الإنسان لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

فالرضى يطرد القلق، ويجلو الحزن، ويمحو المزعجات، ويمسح العبرات، ويذهب الحسرات عن النفس، ويكسبها الأجر والثوبة، ويسكب في القلب السعادة والسكينة، ويدفع الإنسان إلى الانطلاق ومواصلة العمل.

وأما السخط والجزع، فيعودان على صاحبهما بالضرر والكدر والمرارة، والضنى والشقاء والضيق الخائق، ويخسر الأجر، ويحرم من الخير، ولا يغيران من الأمر الواقع شيئاً، ولا يجنى من ورائهما نفعاً.

قال رسول الله ﷺ ﴿من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله، ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى الله﴾ (٢).

وقال رسول الله ﷺ : ﴿إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع﴾ (٣).

ويذكر العلامة ابن قيم الجوزية: « أن السخط باب الهم والغم والحزن، وأشتات القلب، وكسف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله. والرضا يخلصه من ذلك كله، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

الرضا يوجب له الطمأنينة، ويرد القلب وسكونه وقراره، والسخط يوجب اضطراب القلب وريبته وانزعاجه وعدم قراره.

الرضا ينزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت السكينة استقام، وصلحت أحواله، وصلح باله، والسخط يبعده منها بحسب قلته

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم، وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

(٣) رواه الإمام أحمد، ورجاله ثقات.

وكثرته، وإذا ترحلت عنه السكينة، ترحل عنه السرور والأمن والدعة والراحة وطيب العيش، فمن أعظم نعم الله على عبده، تنزل السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها، الرضى عنه في جميع الحالات»^(١).

ونسمع اليوم علماء النفس يعزفون على هذا الوتر، ويؤكدون هذه الحقيقة فيتقدم الفيلسوف (وليم جيمس) بنصيحته قائلاً: « استعدّ دوماً لتقبل الأمر الواقع الذي ليس منه مناص؛ لأنك بهذا القبول تكون قد خطوت أول خطوة في التغلب على مرارته وصعوبته».

إن الإنسان لا يعلم، بعلمه المحدود، ما هو مخبأ له وراء الحادثة القريبة، وفي طيات حياته المقبلة، وإن ما يراه مكروهاً تعافه نفسه، قد يكون فيه الخير الكثير، والفضل العميم ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾^(٢).

فالطفل يصرخ ويستغيث ويتألم، وهو يرى الطبيب يحمل محقنته؛ يريد زرقة، ويرفع صوته عالياً شاجباً هذا العمل، ومستنكراً أن يعتدي عليه أحد، أو يسبب له الألم، دون أن يدري أن وراء هذه المكروهات والآلام قد تكون سعادته وسلامته.

والكليم - عليه السلام - يستغرب خرق السفينة دون أن يدري أن وراء ذلك نجاتها من أيدي الغاصبين.

كم في حياة العظماء والعلماء من كان مرضه وعاهته سبباً في نجاحه وتفوقه؟ ومن كان فقره وراثته حاله دافعاً له على العمل الدؤوب والقيام بالكشوفات العلمية والاختراعات؟.

وكم من الشهداء من كان فوزه بالشهادة، وانتصاره على أثقال الطين، وأصفاد الروح، نوراً أضاء بدمه معالم الطريق، ومعلماً شاخحاً أبصره السائرون، وقدوة حسنة تبعه الكثيرون، وينابيع ثرة أحيا بها الشعوب

(١) ابن قيم الجوزية. مدارج السالكين. ج ٢. صفحة: ٢٠٧.

(٢) سورة النساء. الآية: ١٩.

والقلوب، ومشاعل هداية تستضيء بها النفوس والجموع؟. كم من الناس من كانت المصيبة لهم عبرة ومنعطفاً مفيداً لهم في حياتهم، والابتلاء صحوة لقلوبهم من الغفلة، وأوبة لنفوسهم إلى الله - سبحانه - وإخلاص الدعاء له، والالتزام بشرعه، ومعرفة قدر العافية، وقيمة النعمة، وإقلاعاً عن الصفات المذمومة، وتمسكاً بالسلمات المحمودة، والخصال الكريمة، وتنبهها لهم وصرفاً عن اتباع السبل المنحرفة، وتحذيراً لأمثالهم، وعظة ودرساً بليغاً للآخرين، وبشيراً وتسلياً وتهئية لهم أن أصيبوا فصبروا، ونذيراً وتقريعاً وانزعاجاً إن سخطوا؟.

إن صاحب العاهة يحاول التعويض بكل ما أوتي من قوة، وقد قيل قديماً: « كل ذي عاهة جبار»، فيقوم بخدمة نفسه، والاستغناء عن الآخرين، وقد يصبح معلماً، أو فنياً، أو مخترعاً، أو كاتباً، أو باحثاً، أو فناً... ولكن يجب الرعاية والتربية، وإلا يحصل الانحراف، ويتخذ التعويض مساراً سلبياً.

والإنسان المعاق، يبقى هو نفسه تلك الشخصية التي كانت قبل حدوث العاهة، ولكنه بعد إصابته يدخل في حالة نفسية وانفعالية، قد تتظاهر بغضب أو حزن أو انهيار أو... الخ، وفي أغلب الأحيان، وحسب مستواه الإيماني تنتهي إلى الرضى وقبول الوضع الراهن.

ويجب على المحيطين به من طبائين وأصحاب وأقارب، تشجيعه على الرجوع إلى المجتمع، ومساعدته على استخدام الأجهزة الصناعية (إن لزمته) ودعم إمكاناته ونشاطاته الاجتماعية، وعدم الوقوف أمام طموحاته ومشروعاته، والاهتمام بالجانب النفسي، والابتعاد عن الأحاديث التي تصفه بالعجز، وتصده عن الأمل، وتقعه عن مواجهة الناس، وتجعله محلاً لاستدرار العطف والشفقة من الحاضرين، وتجنب الإشارات التي قد يستوحى منها أنه عبء على الأسرة والمجتمع، وتزويده بفرصة اكتساب القوة والشجاعة والثقة بالنفس، ومحاولة إزاحة الشعور بالضعف والنقص عن نفسه.

☆☆☆

وهناك أمور تدفع بالقلب إلى السعادة، والنفس إلى الصبر عند
البلاء، اختصرها (ابن القيم) في ثلاثة:

« ١- بملاحظة حسن الجزاء .

٢- انتظار روح الفرج .

٣- تهوين البلية بعد أيادي المنن، وبذكر سوائف النعم « .^(١)

أولاً: بملاحظة حسن الجزاء:

بملاحظة حسن الجزاء في الآخرة، وما ينتظر الصابرين من ثواب ﴿ ما
عندكم ينفد وما عند الله باق . ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا
يعملون ﴾^(٢) . وقال رسول الله ﷺ: ﴿ ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما
أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي
خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها ﴾^(٣) .

وبملاحظة أثر التماسك والاحتمال والصبر في الدنيا، وما يبعث في
النفس من قوة وارتياح .

وعن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ: ﴿ من
أصابه هم أو حزن فليدعُ بهذه الكلمات، يقول: أنا عبدك وابن عبدك ابن
أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل
اسم هو لك؛ سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو أعلمته أحداً من
خلقتك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن نور
صدري، وربيع قلبي، وجلاء حزني، وذهاب غمي ﴾^(٤) .

ثانياً: انتظار روح الفرج:

ففي الانتظار والترقب والأمل والفأل الحسن تخفيف للمشقة، والأزمة
مهما اشتدت هي صائرة للانفراج، والاستبشار والتفاؤل مدعاة إلى حيازة

(١) مدارج السالكين. ج: ٢. صفحة: (١٦٦) .

(٢) سورة النحل. الآية : ٩٦ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) قال النووي في (الأذكار): رواه ابن السني .

السعادة، وكسب الخير (تفاءلوا بالخير تجدوه)، بينما التطير والوجوم والتشاؤم قد توقعنا في شراكها.

ثالثاً: تهوين البلية:

أ - بمعرفة نعم الله عليه وأياديه عنده.

ب - تذكر سوائف النعم التي أنعم الله بها عليه.

إن الدعم النفسي أمر هام في تخفيف الصدمة، وتذليل الصعاب، وإدخال الغبطة إلى القلب، ويتمثل بالتعاطف المخلص مع المصاب، والاهتمام الطبيعي به دون تفريط، وتلبية حاجاته وطلباته، ومساعدته على مواجهة التغيرات الطارئة في حياته، والتعامل معها دون إفراط بالمواساة، أو الإكثار من عبارات الحزن والأسى واللوعة، خشية تسرب شعور الوهن والعجز والفراغ - الذي يحسبه لا يعوض - إلى نفسه، وإتاحة الفرصة المناسبة له ليتحدث عن لواعج قلبه إذا أحب، ويخرج الكلمات الحبيسة في أعماقه، ويعبر عن حالته المؤلمة بالدموع دون نياحة، وبالحنن المؤقت دون تأجيل، لأن الحصر وكتمان الحزن وتأخير، وإرجاء تفاعله في النفس، ومدافعة استجاباته، بقصد إظهار رباطة جأشه، أو تجنب رؤية مشهده المكروب من قبل الآخرين، أو دعم معنوياتهم، يؤدي إلى تفجّر الحزن في النهاية بصورة مزعجة، و إلى بطء خلاصه من آثاره وعقاييله.

إن الإيحاء مفيد، سواء صدر عن المصاب ذاته، فيكف عن تعداد متاعبه وترديد أوجاعه، وكثرة التشكي، والذكر الدائم للمصيبة، والعيش النكد في جوها. أو صدر عن الآخرين الذين يتحدثون أمامه بموضوعات عامة، تنطرق إلى نقاط القوة والعزيمة والجلد والشجاعة، ويتجنبون تحريض منعكسات الألم، وإثارة منبهات المصيبة (كتكرار مناقب الفقيد، وتهويل حجم الحادثة، وفداحة الخسارة)، ويتجادبون أطراف الحديث معه بهدوء دون إطالة، وحسب حالته ومستواه.

فالإيحاء الذاتي السلبي يؤثر سلبياً في النفس، بينما الإيحاء الإيجابي يرفع المعنويات، وينمي القدرات، ويشحذ الهمم. ويتذكر الإنسان الخير الوفير، والنعم التي أنعم الله بها عليه، وفضله

الكبير، فإن نزلت به نائبة، أو أصيب بمرض، تذكر أن فوق كل مصيبة ما هو أشد منها، وأن ما يرفل به من عافية، وما ينبض به قلبه من إيمان، هو أعظم هبة قدمها الله للإنسان، تفوق بعظمتها نعمة وجوده ذاتها.

وإن تسرب إلى نفسه اليأس من وعورة الطريق ومتاعب الرحلة، تذكر أن ما أداه خالصاً لله تعالى، يُجرحُ له يوم القيامة مضاعفاً في كتاب يُؤتاه بيمينه، إن شاء الله. وإن أصيب عضو من أعضائه، تذكر ما أفاء الله عليه من صحة في بقية أعضائه. وإن نقص ماله، أو فقد ولده، أو فشل في مبتغاه، تذكر ما أبقاه الله له، وما منحه من جسم وعقل وقدرة على مواصلة عمله واستئناف مسيرته. وإن مسته ضراء صبر، ولم يقل: أرى شوكاً وعوسجاً، وينسى الورود والبنفسج، وإن كره من أحد نكتة سوداء أجال النظر في الصفحة البيضاء. وإن أدلى دلوه فجاءه إلى النصف ممتلئاً، قال: أعطاني الله النصف، ولم يقل: فقدت النصف، وإن أوتي خيراً شكر الله على نعمائه، ولم يقل: ﴿إنما أوتيته على علم عندي﴾^(١)، وما لأحد من حق عندي، وإن رزق جنة تعج بالزهور وتفوح منها العطور، حمد الله على آلائه، ولم يدخل جنته متعجرفاً ظالماً لنفسه.

وقد روي عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي ﷺ: ﴿ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: بقي كلها غير كتفها﴾^(٢). ومعناه: تصدقوا بها إلا كتفها فقال: بقيت لنا في الآخرة إلا كتفها.

إن جملة ما يشتمل عليه هذا الحديث من معان جليلة، دفع الإنسان إلى الاستيقان أن ما ذهب فلن يضيع عند الله، إذا أخلص نواياه، وهوباق في سجل أعماله، وإلى الأمل والاستبشار، والاستزادة من الخير والثواب المضاعف أضعافاً كثيرة.

(١) سورة القصص. الآية: ٧٨.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وانظر: رياض الصالحين ص: ٢٤٢.